

جهود الإصلاح السياسي عند الإمام ولي الله الدهلوي

Efforts of the political reform
Of Imam Wali Allah Al-Dahlawiداود عزرودي^{1*}، د. عبد الرحمن طيبي²¹ جامعة الجزائر 1، مخبر مناهج البحث في العلوم الإسلامية، d.azroudi@univ-alger.dz² جامعة الجزائر 1 كلية العلوم الإسلامية، a.taibi@univ-alger.dz

تاريخ النشر: 2025/06/26

تاريخ القبول: 2025/05/02

تاريخ الارسال: 2024/11/30

ملخص:

يتناول هذا المقال جهود الإصلاح السياسي عند الإمام شاه ولي الله الدهلوي وهو أحد أكبر الشخصيات العلمية موسوعية عبر التاريخ الإسلامي، عاش في القرن الثاني عشر الهجري الموافق للثامن عشر الميلادي في شبه القارة الهندية في ظل حكم الدولة المغولية، هذه الأخيرة التي كانت تعيش أحلك فترات وأكثرها ضعفا واضطرابا، فاضطلع الإمام بدور سياسي كبير تمثل في محاولة إنقاذها من السقوط والحفاظ على الحكم الإسلامي قائما في الهند.

الكلمات المفتاحية: الدهلوي؛ الإصلاح السياسي؛ الهند؛ الدولة المغولية.

Abstract:

This article deals with aspects of political reform at Imam Shah Wali ullah Al-Dahlavi, whois one of the largest scholarly figures in encyclopedic history throughout Islamic history. He lived in the twelfth century AH and the eighteenth century AD in the Indian subcontinent under the rule of the Mongol state, the latter of which was living its darkest and most vulnerable period. And in turmoil, the imam played a major political role represented in trying to saveit from falling and to preserve Islamic unity in India.

Keywords: Dahlavi; political reform; India; the Mughal state.

مقدمة

ظهر في العالم الإسلامي عبر التاريخ مجدّدون ومصلحون كثير، ساهموا في تحريك عجلة التغيير، ولعلّه كان من أبرزهم في العصور المتأخرة حكيم الإسلام علامة الهند أحمد بن عبد الرحيم المعروف بولي الله الدهلوي الذي يعدّ من أعظم الشخصيات العلمية التي أنجبتها الهند، ولقد كان لدعوته ومدرسته الفكرية دور لا نظير له في إظهار دين الإسلام، وخدمة العلوم الإسلامية تدريسيًا وتأليفًا ونشرًا، ولا تزال مؤلفاته العديدة التي تمتاز باستقامة الفكر وغمارة المعاني وقوة الحجة والتحليل العلمي الرصين مرجعًا يستفيد منه العلماء والمحدّثون والمفكّرون والزعماء ليس في الهند فحسب، بل في جميع أقطار العالم الإسلامي.

إن العالم في الإسلام لا يتصوّر منه الانكفاء على التأليف والتصنيف والتدريس فقط، بل عليه أن يشارك هموم الأمة وآمالها، وأن لا ينعزل بنفسه عن شؤون الدولة والسياسة والحياة، كذلك كان الإمام ولي الله الدهلوي يحزنه ما يرى من فساد الأوضاع السياسية وشيوع الفوضى والاضطراب في بلده، فسعى جاهدًا من أجل إصلاح السلطة الحاكمة في ذلك الوقت متمثلة في الدولة المغولية وإحيائها من جديد، حتى تحافظ بدورها على كيان المسلمين وسلطانهم في شبه القارة الهندية.

لا شك أنّ المشروع الإصلاحي والتجديدي للإمام الدهلوي، هو مشروع متعدّد الجوانب متشعب الاهتمامات، والذي يهّمنا في هذا المقال هو جانب الإصلاح السياسي الذي قام به الإمام في عهد احتضار الدولة المغولية، كما أنّنا لن نتناول موضوع الفكر السياسي عند الإمام رغم كونه مفكرًا سياسيًا رائدًا في هذا المجال، كتب مطوّلًا حول التصور الإسلامي لمسائل الحكم والسلطة وبناء الدولة، والخلافة وشروط الخليفة وأعوانه وسياسة المدينة وما إلى ذلك.

ولكن هذه الدراسة تعنى بالجانب العملي في الإصلاح السياسي والدور القيادي والجهادي للدهلوي في تلك الفترة، وهنا نتساءل ما هي ملامح الإصلاح السياسي عند الإمام الدهلوي؟ أو ما هي الخطة التي سار عليها الدهلوي في الإصلاح السياسي؟ وهل تكّلت جهوده بالنجاح؟.

من أجل الإجابة عن هذه الإشكاليات شملت خطة البحث النقاط التالية:

- مقدمة.

1- نبذة تعريفية بالإمام الدهلوي.

2- الأوضاع السياسية في عصره.

3- جهود إحياء الدولة وإصلاح الحكم المغولي وخاتمة.

1. نبذة تعريفية بالإمام الدهلوي:

هو ولي الله بن الشيخ أبي الفيض عبد الرحيم الدهلوي الذي كان من مشاهير مشايخ بلدة دهلي (عاصمة الهند)، ينتهي نسبه من جهة الأب إلى الفاروق الأعظم عمر بن الخطاب ؓ، ومن جهة الأم إلى الإمام الهمام موسى الكاظم ؑ، ولهذا فقد كان الإمام الدهلوي عربي الأصل والنسب ومن سلالة سيدنا عمر بن الخطاب ؓ¹.

العالم الفاضل النحرير أفضل من *** بث العلوم فأروى كل ظمآن².

ولقب بقطب الدين بسبب أن الشيخ قطب الدين بختيار الأوشي رأى رؤيا صالحة للشيخ عبد الرحيم: رأى أنه سيولد له ولد صالح، ورغب أن يسميه باسمه إذا تحققت رؤياه، فلما ولد المولود وتحققت الرؤيا لقب بهذا اللقب، لكن شهرته التي اشتهر بها هي شاه³ ولي الله⁴.

أما ولادته فقد ولد الإمام الدهلوي صباح يوم الأربعاء عند طلوع الشمس في 04 شوال عام 1114هـ (21 فبراير 1703م)، عند أخواله بقرية (فلت) في مديرية (مظفر نكر)، بإقليم أترا براديش القريبة من دهلي⁵.

وأبأؤه الأمجاد أهل علم وفضل وجهاد فضلا عن نسبهم القرشي العمري الأصيل الأمر الذي دفع الإمام الدهلوي لتأليف رسالة ضمنها تراجم أسلافه بعنوان "الإمداد في مآثر الأجداد"، صرح فيها أن أول من قدم الهند من أسلافه هو المفتي شمس الدين (جدّه الثالث عشر) الذي كان نزل وتوطن بلدة رهتلك التي تبعد عن دهلي ثلاثين ميلا⁶.

¹ محمد أحمد رضاء البجنوري، مقدمة تحقيق الخير الكثير للدهلوي، د.ط، (1352هـ)، مطبوعات المجلس العلمي، رقم 13، بريس بجنور، الهند، ص 4-5.

² عبد الحي الحسني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ط1، (1420هـ-1999م)، دار بن حزم، بيروت، 858/6.

³ شاه: كلمة فارسية معناها: الملك، يلقب بها الصوفية والمشايخ، ولما كان الإمام ولي الله من بيوت التصوف والطريقة منذ القدم فقد لقب هو وأبوه وأنجاله كلهم بهذا اللقب. انظر: سيد سابق، مقدمة تحقيق حجة الله البالغة للدهلوي، ط1، (1426هـ-2005م)، دار الجبل، بيروت، 13/1.

⁴ سيد سابق، المرجع نفسه، ص 13. وانظر: عبد الحي الحسني، المرجع السابق، 858/6.

⁵ أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، الإمام الدهلوي، ط1، (1423هـ-2002م)، دار القلم، دمشق، 109/4. وانظر: بشير السالكوتي، الشاه ولي الله الدهلوي حياته ودعوته، ط1، (1420هـ-1999م)، دار بن حزم، بيروت، ص 25.

⁶ بشير السالكوتي، المرجع نفسه، ص 17. وانظر عبد الوهاب الدهلوي، مقدمة المسوى شرح الموطأ للدهلوي، ط1، (1403هـ-1983م)، دار الكتب العلمية، بيروت، 05/1.

أما والده الشيخ عبد الرحيم فقد كان من وجهاء دهلي معروفاً بالزهد والورع والتواضع، متبحراً في علوم القرآن والسنة والفقه والتصوف، وكان من الذين عهد إليهم السلطان عالمكير تنقيح الفتاوى العالمة ومراجعتها، وعُرف خلالها بإمعان النظر وتمحيص الدقائق واستجلاء الغوامض¹.

في بيت هذا شأنه من العلم والتقوى والصلاح نشأ وتربى إمامنا الدهلوي ممّا كان له أكبر الأثر في تكوين شخصيته وصقل مواهبه، حيث نشأ ميّالاً إلى العلم شديد الذكاء²، متّصفاً بسرعة الفهم وصفاء النفس وطهارة الأخلاق وعدم الرغبة في اللهو واللعب، فعنى والده بتعليمه وتربيته عناية فائقة، وحاطه وتعهده منذ صغره، فلما بلغ السنة الخامسة أدخله الكتّاب، فأتم حفظ القرآن في السنة السابعة، وفيها أمره أبوه بالصلاة والصوم، وبدأ يدرس الكتب الابتدائية في تعليم اللغتين العربية والفارسية (التي كانت اللغة الرسمية ولغة العلم والثقافة آنذاك) فأتم دراستها في سنة³.

ثمّ أخذ في طلب العلوم العقلية والنقلية، وتتلّمذ على والده الشيخ عبد الرحيم ويحدثنا الدهلوي عن المقررات التي درسها فيقول: «وأما مذهب الإمام أبي حنيفة رحمه الله، فعرفته بقراءة الهداية جميعها بحثاً ودراية، على سيدي الوالد الشيخ عبد الرحيم إلّا أفواتاً يسيرة من كتاب الكفالة والوكالة وما بينهما، وبقراءة قطعة كبيرة من شرح الوقاية لصدر الشريعة، وقطعة من «التوضيح والتلويح» وقطعة كبيرة من «الكنز» لأبي البركات النسفي، وكتاب الحسامي في أصول الفقه من أوله إلى آخره على سيدي الوالد عن مير زاهد عن ملا فاضل بإسناده»⁴.

وشرع في قراءة شرح الجامي وهو ابن عشر سنين، وقرأ على أبيه مشكاة المصابيح وطرفاً من صحيح البخاري والشمائل للترمذي وطرفاً من البيضاوي والمدارك، كما قرأ من المنطق شرح الشمسية وقسطاً من شرح المطالع، ومن الكلام شرح العقائد وجملة من

¹ عبد الوهاب الدهلوي، المرجع نفسه، ص 06. وانظر السيالكوتي، المرجع السابق، ص 24.

² عبد الوهاب الدهلوي، المرجع نفسه، ص 07.

³ السيالكوتي، المرجع السابق، ص 25-26.

⁴ ولي الله الدهلوي، إتحاف النبیه فيما يحتاج إليه المحدث و الفقيه، تع: عطاء الله الفوجياني، تر: محمد عزيز شمس، ط1،

(1424هـ- 2003م)، المكتبة السلفية، لاهور، باكستان، ص 296.

الخيالي وشرح المواقف، ومن السلوك جملة من العوارف ورسائل نقشبندية، وشرح الرباعيات للجامي، ومن الطب موجز القانون، ومن الحكمة شرح هداية الحكمة، ورسالة لوالده في خواص الأسماء والآيات، وبعض الرسائل في الحساب والهندسة والهيئة وغير ذلك¹. فتخرج على أبيه في الخامسة عشرة من عمره، وقرأ على المحدث المعروف محمد أفضل السيالكوتي، بعض كتب الحديث الشريف من الصحاح الستة².

بعد وفاة والده رحمه الله، تولى الشاه ولي الله التدريس والإرشاد بمدرسته الرحيمية واشتهر بنبوغه وتفوقه فوفد عليه الطلاب من كل جانب، وقضى في تدريس العلوم الدينية والعقلية (ثنتي عشرة سنة)³.

بعد تلك المدة التي قضاهما الدهلوي في التدريس اشتاق إلى الحج وزيارة الحرمين الشريفين، فرحل إلى الحجاز في نهاية سنة 1143هـ، وأقام هناك نحو سنتين حجّ خلالها مرتين، كما صحب علماء الحرمين وروى عنهم الحديث وغيره، ووفاء لمشايخهم الحجازيين فقد ألّف الدهلوي رسالة في تراجمهم سمّاها "إنسان العين في مشايخ الحرمين"⁴.

كان الإمام الدهلوي صاحب قريحة متّقدة وقلم سيّال، حيث ألف الكثير من المؤلفات العلمية، فاقت الخمسين كتاباً شكّلت ثروة فكرية وعلمية في شتى فروع المعرفة الإسلامية، طبع أكثرها والباقي محفوظ في دور الكتب بالهند، وأكثر تأليفه باللسان الفارسي - اللّغة الرّسمية في ذلك الوقت - وبعضها بالعربي⁵.

توفي الإمام الدهلوي يوم السبت التاسع والعشرين من محرّم سنة 1179هـ، الموافق لـ 21 أغسطس عام 1726م بمدينة دهلي⁶، رحمه الله وجزاه عن المسلمين خير الجزاء.

¹ ولي الله الدهلوي، الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف، تر: عبد الوهاب فرحات ومحمد شودري، ط1. القاهرة: دار كليم 2023م. ص 128-134.

² ولي الله الدهلوي، التفهيمات الإلهية، ط1. داهيل: منشورات المجلس العلمي 1935م، 238/2.

³ ولي الله الدهلوي، الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف، (مصدر سابق)، ص 134-135؛ وانظر: السيالكوتي، المرجع السابق، ص 27.

⁴ الدهلوي، المصدر نفسه، ص 133-134. وانظر: الندوي، الإمام الدهلوي، (مرجع سابق)، ص 120.

⁵ عبد الوهاب الدهلوي، المرجع السابق، ص 9-10. وانظر: الندوي، المرجع السابق، ص 131 وما بعدها.

⁶ الندوي، المرجع نفسه، ص 130.

2. الأوضاع السياسية في عصره:

يعدّ عصر الإمام المحدث الشاه ولي الله الدهلوي، عصر الفوضى والاضطرابات السياسية والاجتماعية، كثرت وتتابع في الفتن والثورات والنزاعات والحروب الداخلية¹.

في هذه الأجواء ولد الإمام الدهلوي وترعرع خلال القرن الثاني عشر الهجري الذي شهد ثلاث دول كبرى تحكم العالم الإسلامي، وهي الخلافة العثمانية في قلب العالم الإسلامي وغربه والدولة الصفوية في إيران وآسيا الوسطى، والدولة المغولية في الشرق الأدنى الهند وما جاورها²، هذه الأخيرة التي كانت حينها في أشدّ فترات الضعف بعد وفاة سلطانها الكبير "أورنك زيب عالمكير"³، والذي بلغ بهذه الدولة من الاتساع ما لم تشهد الهند من قبل حتى عدّ أعظم إمبراطور دانت لحكمه الهند كلها، لكن رؤوس الفتنة وبواد الضعف سرعان ما ظهرت بعد وفاته، حيث ترك من بعده ذرية ضعفا عجزوا عن السيطرة على الفوضى التي كانت تنتظر وفاة هذا الإمبراطور الكبير، ونتيجة لذلك سادت الدولة عوامل الفوضى والاضطراب⁴.

وقد كان عمر الدهلوي أربع سنوات عندما توفي السلطان عالمكير، وعاش حتى عاصر بعده تسعة ملوك في مدة نصف قرن من الزمن، وكان منهم من لم تمتد حكومته إلا عشرة شهور، ومنهم من حكم أقل من أربعة أشهر ومنهم من حكم لأيام أو مدّة يسيرة جدّا⁵.

فالإمبراطورية المغولية التي امتدت من بكين إلى بولندا ومن بغداد إلى غابات سيبريا، قد تفكّكت أوصالها واضمحلت بناؤها، وسرى الضعف في أجزائها، وجلس على عرشها ملوك

¹ محمد بشير السيكالكوتي، المرجع السابق، ص 07.

² انظر: الندوي، المرجع السابق ص 35.

³ هو السلطان المغولي العظيم زيب عالم كير بن شاه جهان، أعظم سلاطين الهند على الإطلاق قوة وتقوى، توفي بالمكن سنة (1118هـ-1707م)، حكم الهند خمسين سنة، لم تشهد الهند سنين مثلها في الأمن والاستقرار، كان ورعا تقيا يأكل من كسب يده، أسّس اللجنة العلمية التي كتبت الفتاوى الهندية والتي عُرفت باسمه "فتاوى عالمكيري". انظر: محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط3، (1408هـ-1988م)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، 4/113-114.

⁴ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ط1، (1378هـ-1959م)، دار العهد الجديد، القاهرة، ص 289.

⁵ السيكالكوتي، المرجع السابق، ص 08.

ضعاف منحلّون ليس لهم من السلطة إلّا اسمها، لا يملكون من أمرهم شيئا، ينصبّون ويعزلون كقطع الشطرنج¹.

كانت حالة الاحتضار هذه فرصة سانحة لبعض الطوائف الدينية والعرقية مثل "المرهتة"² و"السيخ"³، و"الجت (الزط)"⁴، للخروج على الدولة المغولية، مهدّدة الأمن والاستقرار في البلاد فقد كانت تستولي على الأولى العصبية الهندوسية، وتدفعهم إلى الانتقام من المسلمين، بل لم يسلم من همجيتهم وإرهابهم حتى غير المسلمين من الهندوس، ممّا أثار حيرة وعجب الغزاة البرتغاليين في تلك الفترة من أفعالهم الوحشية، وكانت تستولي على الثانية روح الانتقام من المسلمين، الذين أحبطوا كل محاولات الانفصال التي قادوها، إذ كانوا يشعرون بأنّهم شعب مستقل لا يمكنه التعايش مع الهندوس والمسلمين، فقتل الآلاف من المسلمين والهندوس على السواء، أمّا الثالثة فكان يدفعهم ما يرونه من ضعف السلاطين المغول وانتشار الفوضى، فأنشئوا تنظيما يقوم على السلب والنهب وإثارة الفتن والاضطرابات، ليس بهدف إقامة دولة أو ثورة سياسية بل من أجل أغراض مالية اقتصادية فقط⁵.

وهكذا اضطرب حبل الدولة، وكثرت الفتن والمصائب وثار الأمراء وولاة المقاطعات، ومما ساعد على ذلك تزايد القوة البريطانية في الهند⁶.

¹ سيد سابق، المرجع السابق، ص 11.

² المرهتة أو المهرات نسبة إلى كلمة مهاراشترا التي تعني المملكة الكبرى، وهي مملكة قديمة لا يُعرف موقعها على وجه التحديد ولا أصل الشعب الذي كان يسكنها، وهم أحد الأجناس المتعددة التي سكنت الهند منذ القدم، تميزوا بلغتهم وحضارتهم الخاصة، وسكنوا بالقرب من مدينة بومباي واعتنقوا الديانة الهندوسية، وهي ديانة أغلب سكان الهند، كتابها المقدس الفيدا. انظر: محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند، ط1، (1428هـ-2007م)، دار النفائس، بيروت، ص 305. وانظر: أحمد شلبي، أديان الهند الكبرى، ط11، (2000م)، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص 37.

³ هي فرقة دينية أسسها كروبانانك في القرن الخامس عشر الميلادي، حاول من خلالها الجمع بين الإسلام والهندوسية، صاغ مبادئها في ما يعرف بالقوانين أو القواعد الخمس وهي: الكيشو، الكانغا، الكانشا، الكارا، الكربال. انظر: ضياء الرحمن الأعظمي، فصول في أديان الهند، د. ط. د. ت. دار البخاري، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ص 190-191.

⁴ الجات هم الزط، منهم المسلمون ويسكنون السند الأعلى والمثلان، ومنهم الهندوس في الراجبوتانا، ومنهم السيخ في البنجاب، وجميعهم من الوديشية أي طبقة التجار والزراع وهي الطبقة الثالثة، حسب نظام الطبقات في الديانة الهندوسية. انظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 300. وانظر: أحمد شلبي، المرجع السابق، ص 52-57.

⁵ الندوي، المرجع السابق، ص 249-259. وانظر: عبد المنعم النمر، المرجع السابق، ص 296.

⁶ سيد سابق، المرجع السابق، 11/1.

3. جهود إحياء الدولة وإصلاح الحكم المغولي:

رأينا ما كانت عليه الهند في القرن الثاني عشر الهجري وما بلغته من الانحطاط السياسي والإداري والخلقي، وفساد النظام، وملوك الطوائف، والقلق والاضطراب، وهو ما يصح أن يعبر عنه بحالة احتضار لأي مجتمع ونظام.

فأصبحت الدولة المغولية رمزا للسلطة الطويلة القوية لأسرة مسلمة حاكمة، ولم تعد وراءها قوة مساندة ولا إدارة حازمة ولاهمة عالية، وكانت القوى الثلاث (المرهتة والسيخ والجت) قوى مقاتلة ناشئة تتحكم لا في مصير الدولة المغولية فحسب بل في مصير البلاد كلها¹، وجلس على عرش الدولة ملوك ضعاف منحلون ليس لهم من السلطة إلا اسمها، لا يملكون من أمرهم شيئا فاضطرب حبل الدولة وكثرت الفتن والمصائب وقل الأمن، وثار الأمراء وولاة المقاطعات على الحكومة المركزية واستبدوا بالأمر دونها، وتطلع أمراء الهندوس وزعمائهم إلى استرداد ملك آبائهم، وانتقصت الدولة من أطرافها².

وكان الإمام الدهلوي مهتما بشؤون الدولة الإسلامية في الهند، وبذل ما استطاع من الجهود والمسعى لإنقاذها من الضعف والسقوط³.

يذكر الدكتور المؤرخ محمد سهيل طقوش أنّ الإمام الدهلوي وبمعية بعض كبار رجال الدولة ممّن أزعجتهم الأوضاع المتردية قد التمسوا المساعدة من القائد الإيراني الشهير نادر شاه الأفشاري⁴.

¹ الندوي، المرجع نفسه، ص 287-288. وانظر: السيالكوتي، المرجع السابق، ص 215-222.

² سيد سابق، المرجع السابق، 11/1. وانظر: عبد المنعم النمر، المرجع السابق، ص 414.

³ بشير السيالكوتي، المرجع السابق، ص 215.

⁴ هو القائد الإيراني الشهير نادر بن طهماز الأفشاري، تركي الأصل، سني المعتقد، نشأ في أسرة خاملة، فكان في أول أمره من قطاع الطرق، عمل بعد ذلك لمصلحة الشاه الصفوي طهماسب الثاني، كان من أصحاب الطموح فتمكن من الوصول إلى سدة الحكم في أحلك أيام الدولة الصفوية أعاد لإيران جميع أراضيها التي احتلت وامتدت حتى بلغت الهند شرقا، قتل عام 1747م، انظر: أبي الحسن الندوي، المرجع السابق، ص 41-42. وانظر: محمود شاكر، التاريخ الإسلامي (التاريخ المعاصر، إيران وأفغانستان)، ط 1، (1416هـ-1995م)، المكتب الإسلامي، بيروت، 18/13-14.

وطلبوا منه أن يسير إليهم ليقضي على فساد السلطان وحاشيته¹، ويصدّ عن المسلمين عدوان الهندوس فاستجاب لهم وسار بجيوشه إلى الهند في سنة (1151هـ-1738م)، متّخذاً من فرار بعض الأفغانيين المنهزمين على يديه إلى هذا البلد وتجاهل السلطان بتسليمهم له، ذريعة لتنفيذ ذلك، ويبدو أنّ السلطان محمد شاه لم يعتقد مطلقاً أنّ باستطاعة الشاه الإيراني غزو بلاده، ولذلك عندما بدأ الغزو فعلاً شكل مفاجأة له ولرجالها جعلتهم في حال ارتباك، وعبر نادر شاه السند وفتح لاهور واستولى على البنجاب، ودارت بين الجيشين معركة ضارية في (4 ذي القعدة 1151هـ/13 شباط 1739م) عند قرية "كرنال" في البنجاب ولم يكن الجيش المغولي بحالة تسمح له بإحراز النصر لتفرقه وتخاذله، فلم تستمر المعركة أكثر من ثلاث ساعات، وأسفرت عن انتصار نادر شاه، واستسلام السلطان محمد شاه².

واستولى نادر شاه بعد ذلك على دلهي (عاصمة الدولة)، ووضع في رقاب أهلها السيف، فأقام مجزرة رهيبة، ولم يسلب عرش المغول، بل أخذ منهم جباية 150 مليون روبية، كما أدخل المناطق الشمالية الغربية من نهر السند في مملكته³. وعاد نادر شاه بعد ذلك إلى إيران، ولكنه ترك الملك ومملكته جثة هامدة لا حراك فيها، فلم يعد للملك هيبة ولم يعد له نفوذ حقيقي على بلاده بل ولا على أمرائه وقواده، فأخذوا يتصارعون، ومن المؤسف أنّ ذلك كله كان يحصل وأعداء المملكة حولها ينهشون جسمها من كل جانب، سواء أكانوا من أهل الهند نفسها، أم من الإنجليز الذين ثبتّوا أقدامهم فيها، وأخذوا يعملون حسب خطة مرسومة للاستيلاء عليها⁴.

¹ ما ذكره الدكتور محمد سهيل طقوش من وجود دور سياسي للإمام الدهلوي في هذه الغزوة، لم أجد له ذكراً في المصادر التاريخية التي وقعت تحت يدي، كما لم يذكره أبو الحسن الندوي في كتابه عن الإمام الدهلوي مع اطلاعه الواسع على حياة الإمام، أمّا عبد المنعم النمر فأشار إلى ذلك لكن على وجه الاحتمال لا على وجه القطع، ولا يبعد أن يكون ما ذكره المؤرخ محمد سهيل طقوش صحيحاً، لأنّ حملة نادر شاه وقعت بعد عودة الإمام من الحج ومضي حوالي 5 سنوات على ذلك وقد ناهز من العمر قرابة 37 سنة، ومعلوم أنّ شخصيته العلمية كانت قد اكتملت آنذاك، بل كان سلطان دلهي في العلم والفضل في ذلك الوقت. انظر: محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص 352. وانظر: عبد المنعم النمر، المرجع السابق، ص 307.

² محمد سهيل طقوش، المرجع نفسه، ص 352-353. وانظر: عبد المنعم النمر، المرجع نفسه، ص 307.

³ الندوي، الإمام الدهلوي، (مرجع سابق)، ص 42. وانظر: عبد المنعم النمر، المرجع السابق، ص 308.

⁴ عبد المنعم النمر، المرجع نفسه، ص 308.

ولم يمتز على الغزو الإيراني اثنا عشر عاما حتى تعرضت الهند لغزو آخر من القائد الأفغاني أحمد شاه الأبدالي¹، ويذكر الشيخ أبو الحسن الندوي أنّ قدوم هذا الغازي إلى الهند كان بطلبٍ من الإمام الدهلوي، وأحد الأمراء المخلصين وهو النواب نجيب الدولة²، فقد أدرك الإمام الدهلوي ببعد نظره ودراسته الواقعية لأوضاع الهند أنّ الحاجة الملحة الأولى لهذه البلاد هي القضاء على ملوك الطوائف، والفوضى والاضطراب وحماية البلاد من خطر القوى الثلاث (المرهتة والسيخ والجث) التي عاثت في الأرض فسادا وأعملت السيف في رقاب المسلمين، كما أدرك أنّ القضاء على هذا الخطر يحتاج إلى قائد عسكري محنك، وجيش قوي مدرب، فوقع اختياره -لهذه المهمة الخطيرة العسيرة الدقيقة التي تحمل ككل مهمة دقيقة خطيرة جوانب النفع والضرر، والربح والخسارة- على هذا القائد الأفغاني البارز، وأخيرا طلب الإمام الدهلوي من نجيب الدولة كتابة الرسائل -بهذا الصدد- إلى أحمد الأبدالي، ثم كتب إليه -مباشرة- رسالة مؤثرة بليغة تكشف عن بصيرة الإمام الدهلوي السياسية وحميته الدينية وجراته الخلقية، وقد ذكر في الرسالة الأوضاع الراهنة في البلاد وصوّر غربة الإسلام وبؤس المسلمين، وحرّض هذا القائد المسلم -الذي كان يملك في ذلك العهد من الهند إلى إيران أكبر قوة عسكرية منظمة- على مقاومة هذه الأوضاع وتثبيت دعائم الدولة المغولية وتوطيد أركانها، وصارحه بقوله: «إنّه لا يوجد في هذا العهد ملكٌ يملك من القوة والشوكة ما يستطيع أن يهزم بهما جيوش الأعداء، مع بُعد النظر والحنكة العسكرية إلا سيادتكم»³.

ولقد استجاب أحمد شاه الأبدالي لنداءات الإمام الدهلوي، فتوجه عام 1173هـ- 1759م لكسر شوكة المرهتة، وتحطيم قوتهم، بمساعدة الأميرين نجيب الدولة وشجاع الدولة الذين كانا قد أثبتا وعيمهما السياسي، ووحدتهما الإسلامية، وأخيرا وقعت بين المرهتة وبين الأفغانيين والجمهة الإسلامية الهندية الموحدة عام 1174هـ- 1761م، معركة باني بت، تلك المعركة الحاسمة التي غيرت في الهند مجرى التاريخ، وأخرجت المرهتة من الخريطة السياسية الناشئة في الهند، فكسرت ظهورهم وقضت على غرورهم⁴.

¹ محمد سهيل طقوش، المرجع السابق، ص355.

² الندوي، الإمام الدهلوي، (مرجع سابق)، ص280-283.

³ الندوي، الإمام الدهلوي، (مرجع سابق)، ص283.

⁴ المرجع نفسه، ص284. وانظر: عبد المنعم النمر، المرجع السابق، ص311.

ولو كانت الدولة المغولية تملك رصيذا من الحياة، لكانت تستطيع أن تنتفع بنتائج حرب (باني بت) وتستعيد سلطتها في الهند لعدة قرون قادمة، ولكن الواقع أنَّ الدولة المغولية -إذ ذاك- كانت جسداً بلا روح¹.

لم يتوقف الدور السياسي الضخم للإمام الدهلوي عند حدود استدعاء هؤلاء الأمراء من الخارج لنصرة المسلمين، ومحاولة إحياء الحكم الإسلامي في الهند الذي كان في حالة احتضار فحسب، بل كان يتوجه إلى أمراء الداخل برسائل كثيرة ينصحهم فيها بتوحيد الصفوف، وتغليب مصلحة البلاد على مصالحهم الشخصية، وكان ينيهم لمنزلة الجهاد في الإسلام وحاجة مسلمي الهند إليه، كما كان يحرضهم على جهاد الكفار وقتالهم، وكان يدعوهم فيها إلى إحياء شعائر الإسلام، وتنفيذ الحدود الشرعية وإقامة حكم الله في بلادهم، كما لا يخفى على من تصفح مؤلفاته ورسائله السياسية التي طُبعت في مجموعة منفصلة²، بالإضافة إلى إعداد وتكوين جيل جديد من التلاميذ والأتباع يحمل لواء العلم والجهاد من بعده، فهو رحمه الله لم ينقطع لحظة واحدة عن التدريس والتأليف، حتى في أثناء الفوضى والاضطراب الذي عصف بالبلاد³.

إنَّه لم يكن لمثل الإمام الدهلوي في سعة أفقه وعالمية تفكيره، والذي كان اطلاعه على التاريخ الإسلامي اطلاعا واسعا عميقا أن يغض النظر عن أحوال العالم لاسيما عن أحوال بلاد المسلمين، فقد كان خبيرا بموقف الشريعة الإسلامية من الخلافة وأهميتها السياسية والاجتماعية، وكان يرى أنَّه لا بد للدين والأخلاق الصالحة والمجتمع الصالح والمدنية الصحيحة والحياة الإسلامية من حكومة مستقلة حرة، وقوة سياسية صالحة⁴.

¹ الندوي، المرجع نفسه، ص 287.

² السيالكوتي، المرجع السابق، ص 215. وانظر: الندوي، المرجع نفسه، ص 267-284.

³ الندوي، المرجع نفسه، ص 263.

⁴ -تاج الدين المناني، الشاه ولي الله الدهلوي وحجة الله البالغة، د.ط، (1432هـ-2011م)، دار الهداية، كيرالا، الهند، ص 32.

وهكذا نجد أنّ الإمام الدهلوي لم يقتصر على ناحية دون أخرى من نواحي الإصلاح، بل رام نهضة شاملة سياسية وعلمية في وقت واحد، وهو رحمه الله لم يكن يطمح إلى الزعامة السياسية بل كانت لديه فكرة واضحة عن دور العلماء في الحياة القومية، فإنّ مهمتهم الأولى هي التدريس والتصنيف وترويج العلوم الشرعية، وبث التعاليم الإسلامية بين الشعوب، لتهيئة الجوّ اللازم للعمل بالروح الدينية الخالصة في جميع ميادين الحياة هذا من جهة، ومن جهة أخرى تقديم النصّح والمتابعة والتوجيه للأمرء والحكام، ودعوتهم إلى العمل لإعلاء شأن الإسلام وتقوية المسلمين، أمّا المناصب الإدارية والقيادة العسكرية فليس من شأن العلماء، وربما يخلّ بوظيفتهم الأولى، تلك هي الخطة التي سار عليها الشاه ولي الله في الإصلاح السياسي¹.

خاتمة:

في الختام نستخلص مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- 1- الإمام الدهلوي واحد من كبار العلماء المصلحين والمجددين في تاريخ الإسلام.
- 2- عاش الإمام في ظروف سياسية سيئة جداً، تمثلت في انعدام الأمن والاستقرار وشيوع الفوضى والاضطراب وكثرة القلاقل والفتن، حيث كانت الدولة المغولية في حالة احتضار.
- 3- بذل الإمام الدهلوي الكثير من الجهود والمساعي لإنقاذ الدولة من السقوط والحفاظ على كيان المسلمين في الهند.
- 4- جرت العديد من المراسلات بين الإمام الدهلوي ومن يتفرّس فيه الصلاح من الملوك والأمراء والقادة العسكريين يستحثّهم فيها على إصلاح الأوضاع السياسية المتردية.
- 5- مواصلة الدهلوي للتدريس والتأليف رغم أجواء الفوضى والاضطراب التي عصفت بالبلاد، فكانت له خطة إصلاحية متكاملة تستهدف جميع جوانب الحياة الإسلامية.

¹ - محمد يوسف، الشاه ولي الله الدهلوي موجز عن حياته وأفكاره، مجلة دعوة الحق، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد 2، السنة 15، (صفر 1392هـ/أفريل 1972م)، ص 65.

- 6- كانت لجهوء الإمام اللهلهوى آثار طلبة فى البءاءة؁ آىآ كسر شوكة الطوائف المأمرة والمعاءة للءولة؁ ولكآها لم تكف فى وقف انآءار الءولة المغولية الآى كانت آسءا بلا روء.
- 7- تنوعت جهوء اللهلهوى فى الإصلاآ السلساسى فآشكلك فى مآاور عءىءة من نصآ أمراء الءاآل وآآرىضهم على الجهاد واستءعاء أمراء الآارآ لآماءة المسلمىن من اعآءاءات المأمراءىن الإرهابىىن؁ وإعءاء آىل آءىء يؤاصل مهمة العلم والجهاء فى البلاد.
- 8- لم ىءع الإمام اللهلهوى إلى نفسه كقائء سلساسى؁ ولم ىآطلع إلى الاستىلاء على الآكم رعم شعبىته الجارفة وآآأىره الكبىر فى الآماهىر والنآبة العلمىة والسلساسىة على آء سواء؁ بل كان ىرى أن وظىفة العلماء هى آقءىم النصآ والمآابعة والآوءىه للأمراء والآكام إلى آانب الآرىس والآصنىف وآءمة العلوم الشرعىة.

قائمة المصادر والمراجع:

- أحمد شلي، أديان الهند الكبرى، ط1، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (2000م).
- بشير السالكوتي، الشاه ولي الله الدهلوي حياته ودعوته، ط1، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، (1420هـ-1999م).
- تاج الدين المناني، الشاه ولي الله الدهلوي وحجة الله البالغة، د.ط، دار الهداية، كيرالا، الهند، (1432هـ-2011م).
- أبو الحسن الندوي، رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ج4، (الإمام الدهلوي)، ط1، دار القلم، دمشق، (1423هـ-2002م).
- عبد الحي الحسني، الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، ط1، دار ابن حزم، بيروت، (1420هـ-1999م).
- عبد الحي الحسني، الثقافة الإسلامية في الهند، ط2، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، (1403هـ-1983م).
- ضياء الرحمن الأعظمي، فصول في أديان الهند، د.ط، دار البخاري، المدينة المنورة، د.ت.
- محمد خليل المرادي، سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر، ط3، دار ابن حزم، بيروت، (1408هـ-1988م).
- محمد سهيل طقوش، تاريخ مغول القبيلة الذهبية والهند، ط1، دار النفائس، بيروت، (1428هـ-2007م).
- محمود شاكر، التاريخ الإسلامي، (التاريخ المعاصر إيران وأفغانستان)، ط1، المكتب الإسلامي، بيروت، (1416هـ-1995م).
- عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، ط1، دار العهد الجديد، القاهرة، (1378هـ-1959م).
- محمد يوسف، الشاه ولي الله الدهلوي موجز عن حياته وأفكاره، مجلة دعوة الحق، وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، العدد2، السنة15، (صفر 1392هـ/أفريل 1972م).
- ولي الله الدهلوي، إتحاف النبیه فيما يحتاج إليه المحدث والفقیه، تع: عطاء الله الفوجياني، تر: محمد عزيز شمس، ط1، المكتبة السلفية، لاهور، باكستان، (1424هـ-2003م).
- _____ الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف، تع: أحمد راتب عرموش، ط3، دار النفائس، بيروت، (1406هـ-1986م).
- _____ التفهيمات الإلهية، ط1، منشورات المجلس العلمي، داهيل، الهند، 1935م.
- _____ الجزء اللطيف في ترجمة العبد الضعيف، تر: عبد الوهاب فرحات ومحمد شودي، ط1، دار كليم، القاهرة، 2023م.
- _____ حجة الله البالغة، تع: سيد سابق، ط1، دار الجيل، بيروت، (1426هـ-2005م).
- _____ المسوّى شرح الموطأ، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، (1403هـ-1983م).